ابن الخطيب

سياسى وشاعر وفيلسوف

كان ابن الخطيب أعظم شخصية ظهرت بالأندلس فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، وكان عبقرية متعددة النواحى ؛ فهو طبيب وفيلسوف ، وهو كاتب وشاعر من الطراز الأول ، وهو مؤرخ بارع ، وهو أخيراً وزير وسياسى ثاقب النظر قوى الادراك .

وهو لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن الخطيب ؛ ولد فى لوشة من أعمال غرناطة فى بيت من أكرم بيوت الأندلس فى رجب سنة ٧١٣ هـ (١٣١٣ م) ، ثم انتقل بيتهم إلى غرناطة ، وخدم أبوه عبد الله فى القصر والخاص فى عهد السلطان يوسف أبى الحجاج . وتلقى ابن الخطيب دراسة حسنة ، ودرس الطب والفلسفة والفقة والأدب ، وبرز فى النثر والنظم منذ حداثته . ولما توفى أبوه فى سنة ٧٤١ هـ حل مكانه فى خدمة القصر وهو فتى فى عنفوانه . وتولى أمانة السر للوزير أبى الحسن بن الجياب وزير السلطان يوسف ، وكان من أعظم الكتاب والشعراء فى عصره . ولما توفى ابن الجياب فى الوباء الكبير سنة ٧٤٩ هـ خلفه ابن الخطيب فى الوزارة والكتابة إلى جانب كبير الوزراء يومئذ الحاجب أبى النعيم رضوان . ولما توفى السلطان أبو الحجاج يوسف (٧٥٥ هـ) وخلفه فى الملك ولده محمد الغنى بالله ، استمر الحاجب رضوان فى الاضطلاع برئاسة الوزارة ، واستمر ابن الخطيب معاونا له ، وندب للوصاية على الأمراء القصر ، وأرسله السلطان لأول ولاية سفيراً إلى السلطان أبى عنان المرينى سلطان المغرب على رأس وفد من رجالات الأندلس يستنصره ويستغيث به على مقاومة ملك قشتالة . وأنشد ابن الخطيب بين يدى السلطان قصيدة مطلعها :

خليفة الله ساعد القدر ... علاك ما لاح فى الدجى قمر

ودافعت عنه كف قدرته ... ما ليس يستطيع دفعه البشر

فتأثر السلطان لقصيدته أيما تأثر ، ووعدهم باجابة ملتمسهم وتحقيق مطالبهم .

وفى سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٩ م) نشبت ثورة فى غرناطة قتل فيها الحاجب رضوان وأقصى الغنى بالله عن الملك ، وتولى مكانه أخوه اسماعيل ففر إلى وادى آش ، واعتقل ابن الخطيب بعد ذلك بقليل . ويصف لنا ابن الخطيب فى ترجمته لنفسه فى كتاب « الاحاطة » هذه المراحل الأولى من حياته العامة فى قوله : « فقلدنى السلطان سره (يريد أبا الحجاج) ولما يستكمل الشباب واستعملنى فى السفارة إلى الملوك واستنابنى بدار ملكه ، ورمى إلى بخاتمه وسيفه ، وائتمننى على صون حضرته وبيت ماله وسجوف حرمه وسعقل امتناعه . ولما هلك السلطان ضاعف ولده حظوتى ، وأعلى مجلسى وقصر الشورة على نصحى ، إلى أن كانت الكائنة فاقتدى فىّ أخوه المتغلب على الأمر ، فسجل الاختصاص وعقد القلادة ، ثم حمله أهل الشحناء من أعوان ثورته على القبض علىّ ، فكان ذلك . »

وتدخّل السلطان أبو سالم المرينى ملك المغرب فى شأن السلطان المخلوع الغنى بالله ، وكانت تربطه معه مودة وصداقة منذ كان أيام محنته يلوذ بحمايته بغرناطة ، وأرسل إلى ملك غرناطة الجديد سفيراً يطلب اجازة الغنى بالله ووزيره المعتقل إلى المغرب ، فأجابه السلطان اسماعيل إلى مطلبه ؛ وجاز الغنى بالله وابن الخطيب إلى المغرب (المحرم ٧٦١ هـ) واستقبلهما السلطان أبو سالم فى فاس بترحاب ، واحتفل بقدومهما فى يوم مشهود ، وأنشده ابن الخطيب فى الحفل قصيدته المشهورة التى يدعوه فيها لنصرة سلطانه ، وهذا مطلعها :

سلا هل لديها من مخبرة ذكر ... وهل أعشب الوادى ونم به الزهر
وهل باكر الوسمى داراً على اللوى ... عفت آيها إلا التوهم والذكر
بلادى التى عاطيت مشمولة الهوى ... باكنافها والعيش فينان مخضر
وجوّى الذى ربى حناحىَ وكره ... فهأنذا سالى جناح ولا وكر

وكان لانشاء ابن الخطيب فى السامعين أعظم وقع ، ويقول لنا ابن خلدون وقد كان من شهود ذلك الحفل ؛ إن ابن الخطيب أبكى سامعيه تأثراً وأسى .

وكان هذا أول لقاء بين هذين المفكرين العظيمين اللذين تجمع بينهما مشابهات عدة ؛ فقد كان كلاهما أستاذ عصره فى التفكير والكتابة ، وقد خاض كلاهما نفس الحياة السياسية المضطربة ، وأخذ بقسط بارز فى حوادث عصره وفى توجيه شؤونه . وكان ابن خلدون يشغل فى دول المغرب نفس المركز الذى يشغله ابن الخطيب بالأندلس ، وقد استأثر فى المغرب بزعامة التفكير والكتابة التى يستأثر بها ابن الخطيب بالأندلس ؛ وتوثقت بين المفكرين العظيمين مدى حين أواصر المودة والصداقة ، ثم فرقت بينهما عوامل الغيرة والتنافس حينما عبر ابن خلدون بعد ذلك إلى الأندلس ، واتصل بسلطانها الغنى بالله . وكان كل منهما يقدر صاحبه ويجل مواهبه ، وقد ترجم كلاهما صاحبه بما ينم عن هذا التقدير والاجلال . فيقول لنا ابن خلدون مثلا فى ترجمته لابن الخطيب إنه « بلغ فى الشعر والترسل حيث لايجارى فيهما ، وملأ الدولة بمدائحه وانتشرت فى الآفاق قدماء » . ثم ينوه بعد ذلك بروعة رسائله السلطانية و براعته فى الادارة والحكم (١) .

ويصف لنا الأمير الأديب أبو الوليد اسماعيل بن الأحمر معاصر ابن الخطيب خلاله ومواهبه فى تلك العبارات الرنانة :

« هو شاعر الدنيا وعلم الفرد والثنيا ، وكاتب الأرض إلى يوم العرض ، لا يدافع مدحه فى الكتب ولا يجنح فيه إلى العتب ، آخر من تقدم فى الماضى ، وهو نفيس العدوتين ورئيس الدولتين ، بالاطلاع على العلوم العقلية والامتاع بالفهوم النقلية . » ثم يشير بعد ذلك إلى قسوته فى الهجاء ، و إلى كونه قد هجا ابن عمه سلطان الأندلس بما لا يليق و يجمل (٢) .

وأنفق ابن الخطيب ومليكه فى المنفى زهاء عامين ونصف عام حتى مهدت حوادث الأندلس لسقوط المغتصب ، واستطاع الغنى بالله بمعاونة الوزير عمر المتغلب على المغرب أن يسترد ملكه ، وذلك فى جمادى الآخر سنة ٧٦٣ هـ (١٣٦١ م) ، ورد السلطان وزيره ابن الخطيب إلى سابق مكانته فى الوزارة ، ولكنه لم ينعم تلك المرة بسابق حظوته ونفوذه ، إذ كان ينافسه

---

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٣٣٢ وما بعدها وراجع كتابى ابن خلدون ص ٣٦ — ٣٩ .
(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٤٠٤ و ٤٠٥ .

فى السلطة شيخ الغزاة عثمان بن يحيى الذى قربه السلطان وأولاه عطفه لما قام به من معاونته فى استرداد ملكه . ونشبت بين الرجلين منافسة شديدة ، وما زال ابن الخطيب يحرض السلطان ويحذره من نفوذ عثمان وآله ، ويذكره بسابق غدرهم ، حتى استجاب السلطان إلى تحريضه ونكبهم (رمضان سنة ٧٦٤ هـ) وبذا خلا له الجو ، وتبوأ ذروة النفوذ والسلطان .

ويصف لنا ابن الخطيب جهوده وعمله فى الوزارة يومئذ فى قوله : « ثم صرفت الفكر إلى بناء الزاوية والمدرسة والتربة بكر الحسنات بهذه الخطة بل بالجزيرة فيما سلف من المدة ، فتأتى بمنة الله تعالى من صلاح السلطان ، وعفاف الحاشية والأمن ، وروم الثغور ، وتثمير الجبايه وإنصاف الحماة والمقاتلة ، ومقارعة الملوك المجاورة ، فى إيثار المصلحة الدينية ، والصدع فوق المنابر ضمانا من السلطان بترياق سم الثورة وإصلاح بواطن الخاصة والعامة . . . [1] » .

غير أن معظم الروايات تدل من جهة أخرى على أن ابن الخطيب جنح عندئذ إلى الاستبداد وسوء المسلك والسيرة . وإليك كيف يصف صديقه ومعاصره ابن خلدون هذه المرحلة من حياته : « وغلب على هوى السلطان ودفع إليه تدبير الدولة ، وخلط بنيه بندمائه وأهل حكومته ، وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد ، وانصرفت إليه الوجوه ، وعلقت به الآمال ، وغشى بابه الخاصة والكافة ، وغصت به بطانة السلطان وحاشيته ، فتفننوا فى السعاية فيه [2] . »

وأنفق ابن الخطيب بضعة أعوام أخرى فى الوزارة وهو يستأثر بكل سلطة ، ويتصرف تصرف الحاكم المطلق ، ويثير حوله ضراما من البغضاء والحسد ، وكان السلطان يعرض فى البداية عن الاصغاء لأعدائه والوشاة به . ولكنه بدأ فى النهاية يتأثر بسعايتهم . وشعر ابن الخطيب أنه قد بدأ يتغير عليه ، وخشى العاقبة ، فعول على مغادرة الأندلس واستأذن السلطان فى تفقد الثغور الغربيه ، وسار إليها فى نفر من خاصته ، ومعه ولده على ، وما كاد يصل إلى جبل الفتح حتى عبر البحر إلى سبتة (٧٧٣ هـ) وذلك بتفاهم سابق بينه وبين السلطان عبد العزيز المرينى ملك المغرب ، وكان السلطان

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٤١ . — (٢) ابن خلدون ج ٧ ص ٣٣٥

يقيم يومئذ فى تلمسان نقصد إليها ابن الخطيب ، واستقبله السلطان بحفاوة وأنزله أكرم منزل ، وبعث سفيراً إلى الأندلس ليسعى فى استقدام أسرة الوزير المنفى ، فأتى بها معززة مكرمة ، وتبوأ ابن الخطيب فى بلاط ملك المغرب أسمى مكانة . وغص خصوم ابن الخطيب بغرناطة بنجاته على هذا النحو ، فعولوا على ملاحقته وسحق هيبته ، فاتهموه بالزندقة والخروج عن شريعة الاسلام والطعن فى النبى ، والقول بالحلول ، وسلوك مذهب الفلاسفة الملحدين ، ونسبوا إليه فى ذلك أقوالا ومقالات أولوها وفق مقاصدهم . وكان تلميذه وخلفه فى الوزارة أبو عبد الله بن زمرك أكبر مروج لهذه الدعاية . وتولى صوغ الاتهام عدو ابن الخطيب القاضى أبو الحسن بن الحسن النباهى ، ووجه إليه بالمغرب رسالة شديدة ينوه فيها بما ارتكبه من الطعن فى حق النبىّ ويقول : « فانه نقل عنكم فى هذا الباب أشياء منكرة يكبر فى النفوس التكلم بها أنتم تعلمونها ، وهى التى زرعت فى القلوب ما زرعت من بغضكم وإيثار بعدكم مع استشعار الشفقة والوجل من وجه آخر عليكم . ولولا أنكم سافرتم قبل تقاص السلطة عنكم لكانت الأمة المسلمة استعاضاً لدينها ودنياها قد برزت بهذه الجهات لطلب الحق منكم . » ثم يعدد مثالبه فى الحكم قائلا : « فليس يعلم أنه صدر منكم من العبث فى الابشار والأموال ، وهتك الأعراض وإفشاء الأسرار ، وكشف الأستار ، واستعمال المكر والحيل ، والغدر فى غالب الأحوال للشريف والمشروف والخادم والمخدوم [1] » وسجل القاضى أبو الحسن تهمة الزندقة على ابن الخطيب وصادق السلطان على حكمه ، وأرسل القاضى رسله إلى السلطان عبد العزيز يطالب بتنفيذ حكم الشرع فى الوزير الملحد ، وهو الاعدام . فأنف السلطان لطلبه وعنف رسل الأندلس وقال لهم : هلا أنفذتم فيه حكم الشرع وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه ؛ وردهم خائبين ، وزاد فى اكرام ابن الخطيب ورعايته [2] .

ولما توفى السلطان عبد العزيز بعد ذلك بقليل (٧٧٤ هـ) وخلفه ولده

---

(١) نفح الطيب ج ٣ ص ٦٨ .
(٢) راجع ابن خلدون ج ٧ ص ٢٣٥ و ٢٣٦ ونفح الطيب ج ٣ ص ٦٧ و ٦٨ .

السعيد طفلا على العرش غادر بلاط المغرب تلمسان ، وسار ابن الخطيب برفقة الوزير أبي بكر بن غازى القائم بالدولة ، ونزل بفاس واقتنى الضياع والدور ، واستمر على مكانته فى الدولة . ولكن حوادث المغرب ما لبثت أن تمخضت عن انقلاب جديد . ذلك أن الثورة نشبت فى شمال المغرب على يد بعض الزعماء من بنى مرين ، وعضدت حكومة الأندلس هذه الحركة وأمدتها بالعون ، ونادى الثوار بولاية الأمير أحمد بن السلطان أبي سالم . وحاول الوزير ابن غازى مقاومة الثوار فلم يفلح ، واقتحم الخوارج فاس فاذعن الوزير . وخُلع الملك الطفل السعيد ، وجلس السلطان أحمد على العرش وذلك فى أوائل سنة ٧٧٦ هـ .

وكان ابن الخطيب قد لجأ فى أثناء ذلك إلى البلد الجديد « ضاحية فاس » وكان التفاهم قد تم بين السلطان ابن الاحمر وزعماء الفتنة بشأن ابن الخطيب ومصيره . فلما وقع الانقلاب بادر السلطان بالقبض على ابن الخطيب واعتقاله ، تنفيذاً للعهد الذى قطعه لابن الأحمر ، ولم يدخر وزيره سليمان بن داود وقد كان من ألد خصوم ابن الخطيب جهداً فى تشديد النكير عليه وتدبير مصرعه ، وكان ابن الأحمر يتوق إلى الانتقام من وزيره السابق لما نمى إليه من أنه كان يحرض السلطان عبد العزيز على محاربته . وبعث ابن الأحمر وزيره أبا عبد الله ابن زمرك إلى فاس ليعمل على تحقيق هذه الغاية ، وعقد السلطان أحمد مجلساً من رجال الدولة وأهل الشورى واستدعى إليه ابن الخطيب لمناقشته ومواجهته بالتهم المنسوبة إليه وأخصها تهمة الزندقه استناداً على ما ورد فى بعض رسائله ، وعزّر وعذب أمام الملأ ، وأفتى بعض الفقهاء السفلة بوجوب قتله ، ودس عليه الوزير سليمان بعض الأوغاد فقتلوه خنقاً فى سجنه ، وأخذت جثته فى الغد وأضرمت فيها النار ثم دفنت . وكان ذلك فى أواخر سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤م) .

وهكذا ذهب الكاتب والمفكر الكبير ضحية الجهالة والتعصب والاحقاد السياسية الوضيعة . وقد نقل إلينا صديقه ابن خلدون عنه أبياتاً من الشعر كان يرددها وهو فى سجنه ويرثى بها نفسه توقعاً لمصيره المحزن

بعدنا وإن جاورتنا البيوت ... وجئنا بوعظ ونحن صموت
وأنفاسنا سكنت دفعة ... كجهر صلاة تلاه القنوت
وكنا عصما فصرنا عظاما ... وكنا نقوت فها نحن قوت

وكان ابن الخطيب سياسيا بعيد النظر ، وكان يرى فى حوادث الأندلس شبح المستقبل الرهيب واضحاً ، ويستشف بنافذ بصيرته ما وراء الحجب من نهاية محتومة لهذا الوطن الذى مزقته الأهواء وأضنته الفتنة ، وكان يرى هذا المصير المحزن قبل وقوعه بأكثر من قرن ، ويهيب بقومه وإخوانه المسلمين فيما وراء البحر أن يبادروا إلى غوثه ونصرته وإلى المجاهدة فى سبيل الدين والوطن ، وله فى ذلك رسائل عديدة ونداءات مؤثرة يوجهها إلى قومه ، ويلفت نظرهم إلى الخطر الداهم الذى لا محيص من وقوعه ، وهى رسائل تمتاز بروعة أسلوبها (١) .

وأبلغ من ذلك كله فى الدلالة على شعور ابن الخطيب بخطر الفناء الذى ينتظر الأندلس ما وجهه فى وصيته إلى أولاده من النصح بعدم الاسراف فى اقتناء العقارات بالأندلس إذ يقول لهم : « ومن رزق منكم سالا بهذا الوطن القلق المهاد الذى لا يصلح لغير الجهاد ، فلا يستهلكه أجمع فى العقار فيصبح عرضة للمذلة والاحتقار ، وساعيا لنفسه أن يتغلب العدو على بلده فى الافتضاح والافتقار ، وسعوقا عن الانتقال أمام النوب الثقال . وإذا كان رزق العبد على المولى ، فالاجمال فى الطلب أولى (٢) . »

ومن الصعب علينا أن نلم بمجهود ابن الخطيب الفكرى والأدبى فى هذا المقام الضيق . والحقيقة أن ابن الخطيب كان عبقرية متعددة الجوانب حسبما أسلفنا ، فكان طبيباً وفيلسوفاً وشاعراً وكاتباً ، وكان سياسيا ومؤرخا ، وقد ترك لنا تراثا ضخما متنوعا من مؤلفات عديدة وديوان شعر حافل ورسائل أدبية وسياسية لا تحصى .

ونستطيع أن نذكر من مؤلفات ابن الخطيب الكتب الآتية :

الاحاطة فى أخبار غرناطة ، مركز الاحاطة بأدباء غرناطة ، الحلل (بالأسكوريال) .

---

(١) نقل إلينا المقرى فى نفح الطيب وأزهار الرياض كثيراً من هذه المسائل .
(٢) نفح الطيب ج ٤ ص ٤٢٥ .

اللمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية ، رقم الحلل فى نظم الدول . الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ، التاج المحلى فى مساجلة القدح المحلى ، (وهو أيضاً تاريخ لغرناطة)

منفعة السائل فى المرض الهائل . (وهو يتعلل بالوباء الكبير سنة ٧٤٩ هـ) (بالأسكوريال) .

ريحانة الكتاب (بالأسكوريال) الديوان (بالأسكوريال) السحر والشعر الكتيبة الكامنة فى أدباء المائة الثامنة [١]

وكان ابن الخطيب من أئمة الموشحات الأندلسية . ومن أشهر نظمه الموشحة الذائعة الصيت التى مطلعها :

جادك الغيث إذا الغيث همى يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما فى الكرى أو خلسة المختلس

ولابن الخطيب تراث حافل من الرسائل الأدبية والسياسية ، وقد نقل إلينا المقرى منها العدد الجم ، ونقل إلينا ابن خلدون بعض ما كان يكتبه إليه منها [٢] .

ويفرد المقرى فى كتابه نفح الطيب مجلدين كاملين (هما الثالث والرابع) لابن الخطيب ، وأخباره وشعره ونثره ، وشيوخه وتلاميذه ، وقد نقل إلينا فيهما من مختلف كتبه ورسائله فصولا وشذوراً لا تحصى ، كما نقل إلينا وصيته لأولاده ، وهى من أبدع ما كتب [٣]

محمد عبد الله عنان

---

(١) راجع كتاب العبر ج ٧ ص ٤٢١ — ٤٣٠ .
(٢) راجع كتاب نفح الطيب ج ٤ ص ٣١٩ — ٤٢٦ .
(٣) راجع هذه القصيدة بأكملها فى نفح الطيب ج ٤ ص ١٩٨ وما بعدها .